دلالة العنوان
في رواية " ذاكرة الجسد " لأحلام مستغانمي

الأستاذ : أحمد قنشوبة
قسم الأدب العربي
جامعة محمد خيضر بسكرة

تعد دراسة العنوان – سواء في الشعر أم في القصة – معلما بارزا من معالم المنهج السيميائي على خلفية أن العنوان هوية النص التي يمكن أن تختزل فيها معانيه ودلالاته المختلفة. ليس هذا فحسب، بل حتى مرجعياته و أيديولوجيته؛ و مدى قدرة مبدع النص على اختيار العنوان المغري و المدهش، و الممثل لنصه . لهذا السبب عد العنوان من أهم عناصر النص الموازي (le Paratéxte) التي تسيج النص، و كذا المدخل الذي يلج من خلاله القارئ إلى حظيرة النـــص : «إذ يحتـــل (العنوان) الصدارة في الفضاء النصي للعمل الأدبي فيتمتع بأولوية التلقي» [1].

و طالما أن السيميائية لا تبحث عن الدلالة فحسب ؛ بل أيضا عن طرق تشكيلها فإن الدارس للعنوان – بالإضافة إلى بحثه عن الدلالة – يحفر بنية العنوان و مضامينه للوقوف على طريقة مبدع النص في صنع عنوانه :

« و لا مناص للدارس هنا من اللجوء إلى التأويل ،لأن العنوان – حسب امبرتو إيكو – هو للأسف منذ اللحظة الأولى التي نضعه فيها مفتاح تأويلي » [2].

و قد وقع الاختيار على رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي؛ لأجل النقاش الذي حازته في الساحة الأدبية العربية ، و لكونها أول رواية مكتملة عربية جزائرية بقلم نسائي. وقد تم تصنيفها قبل أيام مع أحسن خمس روايات عربية جزائرية [3] و لأن هذا العنوان مكتنز، مفخخ مخاتل .

فما هي دلالات عنوان " ذاكرة الجسد " من حيث هو نص مواز للرواية، و ما هي طريقته في أداء الدلالة ؟

سننطلق في تحليلنا للعنوان من كلمة "الجسد" ،لأنها هي المضاف إليه الذي يقوم على كاهله تعريف كلمة « ذاكرة ». فالمعنى المعجمي للكلمة يقول: «و الجسد مصدر جسيد الانسان . قيل : و الجن و الملائكـــة و غير ذلك .. و في الكليات ؛ الجسم جسم ذو لون كالانسان والملك و الجن. و منه الجساد للزعفران. و لذلك لا يطلق على الماء والهواء.... والجسد أيضا الزعفران و عجل بني اسرائيل والدم اليابس ... » [4]

« قال النابغة الذبياني :

فلا لعمر الله الذي مسحت كعبته وما أريق على الانصاب من جسد

و في شرحها : و الجسد و الجساد: الزعفران، و هو هنا الدم ، أقسم بالله أولا ، ثم بالدماء التي كانت تصب على الأنصاب » [5].

« و قوله [تعالى] في سورة الأعراف :﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا ..﴾ قال في الصحاح : أي أحمر من ذهب . والجسد الدم اللاصق اليابس ...

و الجسدي خلاف الروحي و المنسوب إلى الجسد » [6].

و الجسد الجانب المادي للإنسان، لا سيما الجانب التشريحي له، و الشكل الخارجي [7]

* و الحق ؛ أن العنوان – لأول وهلة – يخاتلنا ، فنحسب – وفق المرجعية الآنية لكلمة جسد، و بتآمر مع صورة غلاف الرواية – أن المقصود الأول من كلمة جسد " هو الجانب الجنسي للإنسان، لأن السائد توظيفها كثير لهذه الدلالة. و لعل من أسباب اختيار الكلمة تحقيق هدف إغرائي إشهاري للعنوان ..

لكننا ما إن نتوغل في متن الرواية حتى تأخذ دلالتها منحنى آخر.

و بالنظر إلى المعنى المعجمي، و بعد قراءة أولية للرواية ، فإن كلمة « جسد » تدل عموما على ثلاثة مقاصد:

● أولها : المعنى الحسي لـــ " الجسد " : أو الجانب الجسدي للإنسان بمقابل الروح، لا سيما و أن الروائية تسرد معاناة " خالد " المنقوص ذراعا، و الذي يصر الكثير على أن يعاملوه بوصفه جسدا و ليس روحا، فيعدونه إنسانا غير كامل .

● و ثانيها : المعنى الجنسي : لأن الجنس ألصق بالجسد، الجنس المقموع خاصة عند المرأة في المجتمع التقليدي أو الجنس الخالي من أي علاقة روحية في المجتمع الأوربي (وإن كان التركيز هنا على المجتمع العربي التقليدي يبدو أكثر)

● وثالثها معنى الدم : إذ تحكي الرواية في بعض صفحاتها عن دماء الثورة الجزائرية ودماء ضحايا الأزمة في التسعينيات..

* لكن هذه المعاني، و إن كان العنوان.. يحملها كلها ، إلا أنها تتكلس – إذا صحت اللفظة – لتعطي دلالة مهيمنة على الرواية ، بالنظر إلى أن كلمة جسد لم تعد تعني المعنى القاموسي لها فقط و لم تبق كلمة عادية محايدة، بل أضحت رمزا للعذاب والقهر والاغتصاب و غياب حرية الاختيار. إنها موقف أيديولوجي : «لم يعد مجرد تابوت يحوي ميتا، بل طبيعة متحركة، تعلن عن موقف معين. من هنا عد قطبا رئيسيا للاهتمامات المعاصرة ومرجعا ضروريا لكل محاولة تروم فهم الوضع الإنساني بأبعاده المختلفة» [8].

إذن، فحين نتوغل في عوالم الرواية، نحس أن خالدا الجسد المنقوص ذراعا؛ المعذب المسكون عنفا و بؤسا و اغترابا و تناقضا هو المقصود. لكنه لا يعبر عن نفسه فحســـب، بل إن حكايتـــه عن معاناتـــــه و ذاكرته التي تغرز جسده و تجدد ألمه كلما أراد الشفاء منها[9] ؛ تتوازى مع أجساد أخرى داخل الرواية . فإذا كان الجسد بمعناه المادي تكرارا حياتيا للعنصر البشري، فإنه هاهنا يغدو رمزا (Symbole) للمرأة / المدينة / الوطن الذين يعانون – حسب الروائية – من القهر و العذاب ،إذ الكلمات قد تصبح رموزا حيث الدلالة بواسطة الأعراف أو القوانين حسب سيميائية تشارلز بيرس[10]، و قد رأينا أن من المتعارف عليه الآن عد الجسد دليلا على المعاناة و القهر.

و يمكن أن نرمز للأجساد المعذبة المقصودة في العنوان بالخطاطة البسيطة التالية :

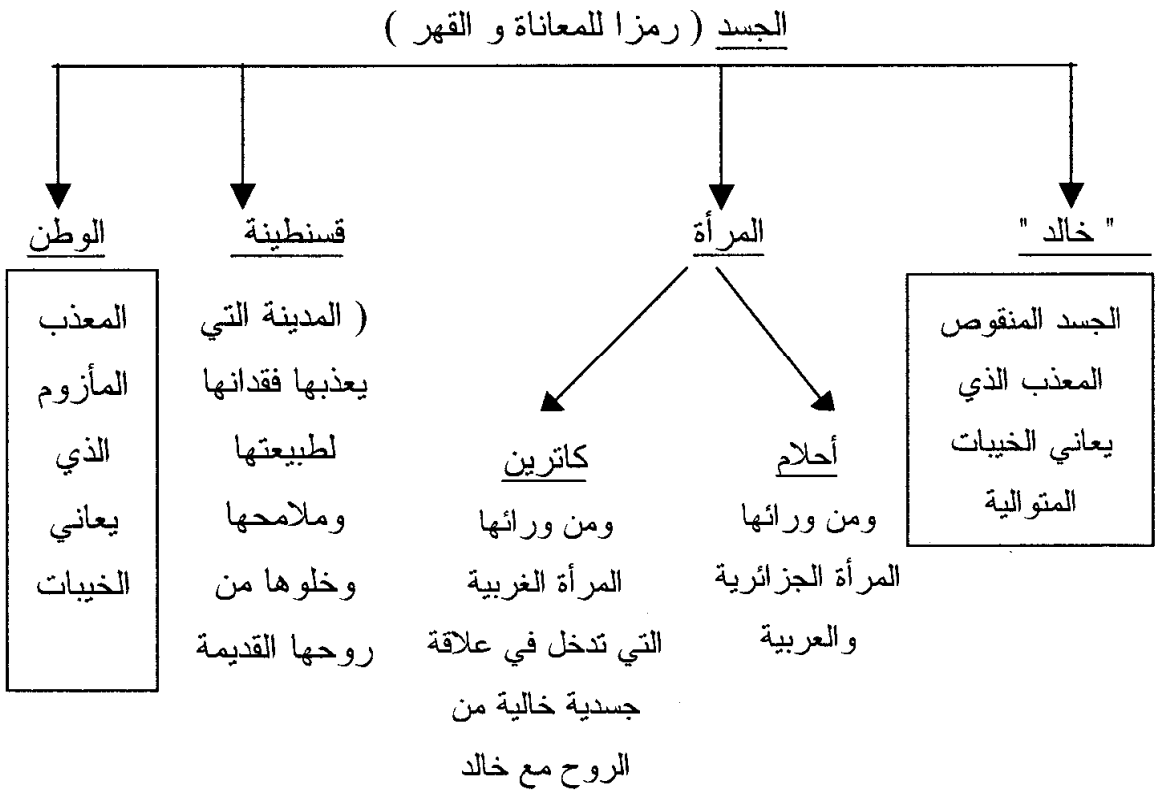

و لعل هذا الربط بين المرأة و قسنطينة (المدينة) و الوطن كان انطلاقا من موقف أيديولوجي، يقول بربط كل ما هو مقهور و معذب بالأنثى ،أو مقوله :«الأنوثة المغتصبة» أو « المرأة الضحية .. في المجتمع .»

كما يتجلى في " جسد " الجانب الحسي في الكتابة ،أو لذة النص إذ يغدو النص وفق هذه الرؤية جسدا يحقق اللذة .

حين ننتقل إلى كلمة "ذاكرة" ، نجد المعنى المعجمي لها : يقول : « ذكر الشيء يذكره وذكر و تذكارا حفظه في ذهنه ... و اذكرت المرأة ولدت ذكرا فهي مذكر .. و الذاكرة قوة في الدماغ تذكر ما تدركه القوة الوهمية من المعاني وتحفظها .. و المذكر التي تلد الذكور : و من الأيام الشديد الصعب [11].

و الذاكرة « قدرة النفس على الاحتفاظ بالتجارب السابقة و استعادتها » [12]

و قد جاءت كلمة ذاكرة في العنوان معرفة بالإضافة " ذاكرة الجسد " ،و كأن هذا تصريح بأن هذه الكلمة قد أفرغت من محتواها ،بعد أن وظفها من هب و دب ؛ فأصبحت تحمل معان سلبية . و لهذا اقتضت وجود مضاف إليه، يعرفها و يعطي كنهها و خصوصيتها

في هذا العنوان، و يحميهـــا من الفهـــم الســـيء و التوظيف المغرض[13] ، ولم يصح أن تأتي لوحدها في العنوان حتى و لو معرفة بالألـــف و اللام ،فهـــي « لولا الاضافة لوردت عامة، لا خاصة » [14] لا سيما و أن اختيار الاشارات اللغوية من لدن الكاتب ينبع أساسا من مراعاة السياق المعرفي والأيديولجـــي و القيمي للمتلقي (وهو هنا القارئ الجزائري بالدرجة الأولى) خاصة إذا تعلق الأمر بمفتاح النص و عتبته الأولى .

يمكن أن نستلهم بداية المعنى الذي ذكرناه سابقا، من أن الأيام المذكر هي الشديدة الصعبة، ونسقطه على كلمة ذاكرة في العنوان ،التي تحمل في الرواية تاريخا لكل ما هو مؤلم و شديد و مؤرق بالنسبة إلى خالد بطل الرواية و السارد لها. يقول خالد في الرواية: « ... فالذاكرة في مناسبات كهذه لا تأتي بالتقسيط ،و إنها تهجم عليك شلالا يجرفك إلى حيث لا تدري من المنحدرات و كيف لك لحظتها أن توقفها دون أن تصطدم بالصخور، وتتحطم في زلة ذكرى ... » [15]

و مادامت الذاكرة هوة تحمل كل تلك الأشواك و المطبات و الزلات ،فإن خالدا يختار لها الرواية وسيلة لإخراجها من عالم الكبت ؛ من عالم القصص.. و لهذا تتقاطع دلالة الذاكرة / الألم في العنوان مع دلالة الكتابة / الرواية ،التي تحسن نقل الألم لإراحة النفس منه و التنفيس عنها و لو قليلا :

« و رحت أطارد دخان الكلمات التي أحرقتني منذ سنوات ،دون أن أطفئ حرائقها مرة فوق صفحة » [16]

تقول فريدة النقاش في قراءتها النقدية للرواية :« وهو لا يبدأ الكتابة إلا مع تجربة الحب ليتجلى هذا الجانب الحسي في تجربة الكتابة و هو الألم» [17] فلعل أحلام كانت تريد القول بعنوانها هذا : " رواية العذاب " .

كما يتقاطع مفهوم الذاكرة مع مفهوم الرواية لأن الذاكرة التي هي بطبيعتها إيغال في الماضي القريب و المتوسط و البعيد، و هنا يتلبس زمن الخطاب في الرواية بهذا المنطق، فيغدو زمنا دائريا أو حلزونيا فتصبح الرواية ذكريات فيها سرد آني و سرد سابق و سرد لاحق ..

مدعمات العنوان:

لن نغادر الكلام عن ذاكرة الجسد دون التعريج على بعض عناصر النص الموازي، الواردة في غلاف الرواية نظرا لدورها المدعم للعنوان و المؤازر له في تأدية الدلالة ..

أول ما يطالعنا سيطرة اللون الأبيض على مساحة ورقة الغلاف، و كذا بروز الأسود بوضوح في كتابة العنوان اسم الروائية والناشر، وقد يكون ذلك رمزا لشيء ما؛ فالرموز – و من بينها الألوان – :

« أصبحت مستعملة في شتى ميادين الحياة و يشترط في توظيفها المعرفة الجماعية للرمز و دلالته » [18].

و نظن أن الأسود الفاقع الذي يصر على الحضور داخل الأبيض هو دلالة على الإرادة في الكتابة و في عدم السكوت ؛ في عدم خنق الذاكرة المكبوتة داخل خالد إلى هذا الحد، بل في التخلص من الذاكرة السوداء سواد المداد؛ بإفراغها في مساحة الورق ولفظها؛ و هي العلقة التي تكاد تخنقه و تنغص عليه حياته:

« شعرت أنني قادر على الكتابة عنك ،فأشعلت سيجارة عصبية، ورحت أطارد دخان الكلمات التي أحرقتني منذ سنوات ،دون أن أطفئ حرائقها مرة فوق صفحة

هل الورق مطفأة للذاكرة؟

و لا بد أن أعثر أخيرا على الكلمات التي سأنكتب بها فمن حقي أن أختار اليوم كيف أنكتب، أنا الذي لم أختر تلك القصة ».[19]

لا سيما و أن اللون الأسود / لون الكتابة – كما يراه النفسيون – يدل على نفسية ثائرة على الظروف، وعلى مبالغة في البحث عن المطلق.[20] وهو الاتجاه الواضح عند بطل الرواية .

وإذا كانت الكلمات حرة منطلقة ثائرة نزقة، و تجلجل بالحقيقة على الرغم من مرارتها فإن الرسم محايد، يميل إلى الصلح و مجاراة الأمور.. و البطل الذي جرب الفرشاة الناعمة؛ أدرك الآن أن القلم هو السكين الذي يبحث عنه، فهو يكتب الآن و يغرز سكينه المزعج .

و يمكن أن نجد دلالة ذلك حاضرة إذا أولنا سبب اختيار وضع صورة صغيرة في وسط الغلاف، صغيرة إذا ما قورنت بحجم الصفحة التي استغرقها البياض الحر، و داخله السواد الواضح المجلجل الذي لا يقف في وجهه شيء، كما أن الصورة جاءت مؤطرة بإطار واضح لا يمكنها تجاوز حدوده.

يساعدنا " خالد في التأويل حين يقول: «ها هو ذا القلم إذن ... الأكثر بوحا و الأكثر جرحا ،ها هو ذا الذي لا يتقن المراوغة ،و لا يعرف كيف توضع الظلال على الأشياء، ولا كيف ترش الأوان على الجرح المعروض للفرجة » [21]. أما الرسم فبمقابل ذلك : « مصالحة مع الأشياء » [22]

و لعل الانسان في بداية رحلته على البسيطة منذ الأزل، مارس الرسم قبل الكتابة، رسم حين كانت حياته سهلة بسيطة ، واتجه شيئا فشيئا إلى الكتابة حين بدأت حياته في التعقد والصعوبة، و حين بدأ الألم يفسد عليه حياته .

لقد كان حب خالد لأحلام آخر مرحلة يمكن أن يستعيد معها توازنه و يمحو به تناقضاته، لذا أصر على تجسيد هذا الحب في لوحته. و لكن ما إن فشل الحب، ووقعت الخيانة حتى استقالت الفرشاة، و انتهت كل فرص المصالحة مع الأشياء، وفتح المجال للقلم، فحين غاب الحب؛ ظهر الأدب: « هنيئا للأدب على فجيعتنا إذن» [23]

وطالما أن« كل متضادين، فإما أن يكونا من جنس واحد، بعينه مثل الأبيض و الأسود اللذين جنسهما القريب اللون.» [24] فإنه يمكن تجسيد تعارض الكتابة مع الرسم بالمربع التالي:

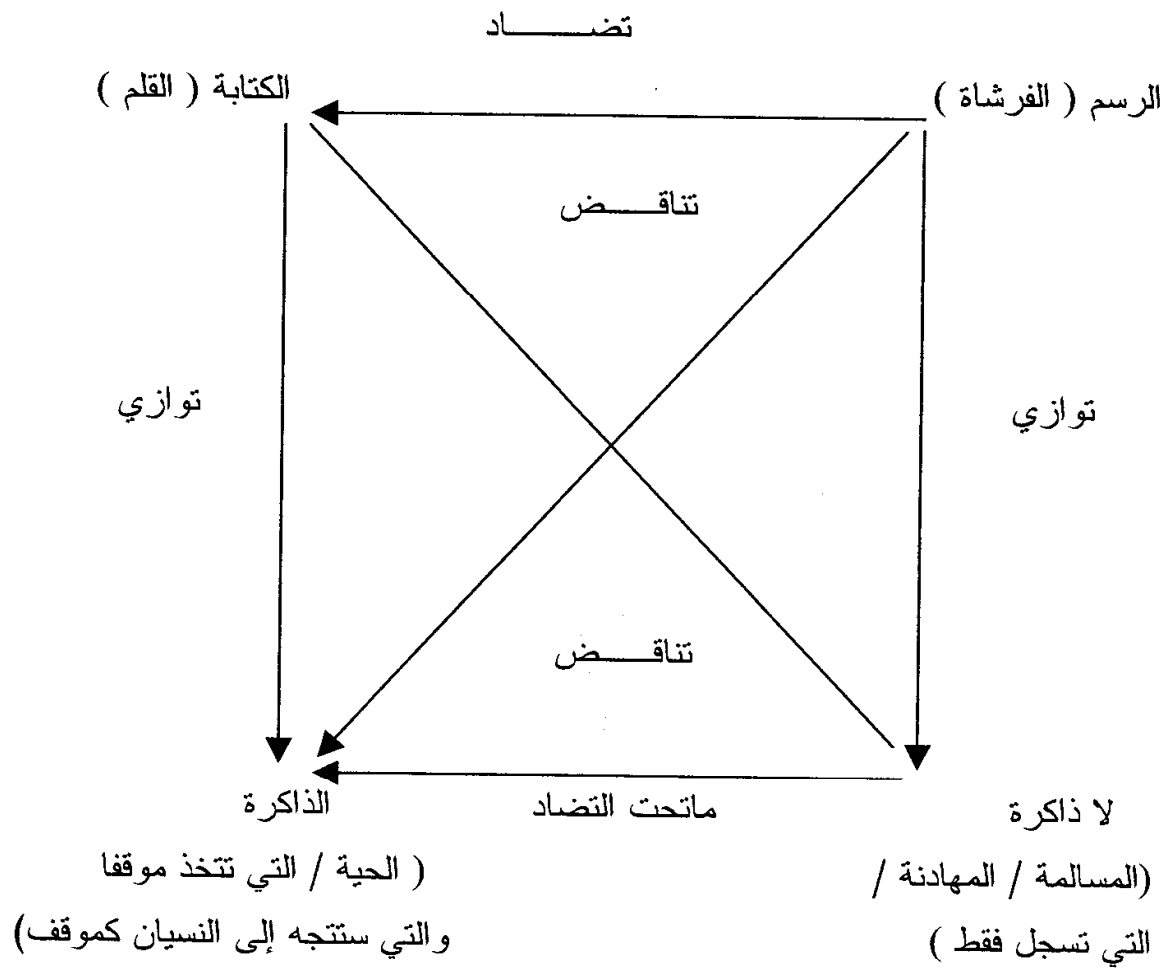

أما إذا تأملنا الصورة الصغيرة الموجودة في غلاف الرواية ، فإنها لوحة لامرأة تتكئ على وسادة وثيرة و تحتها بساط موشى، و في رقبتها و أذنيها حلي تتدلى. والصورة في سيميائية تشارلز سندرس بيرس:

«هي أيقونة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل صفات تمتلكها خاصة بها وحدها، مثل الصورة الفوتوغرافية»[25]. والتعامل معها «وإدراكها مؤسس على مرجعيات ومتأثر بالانتماء الثقافي. فكل إدراك ليس محايدا، بل إنه مرتبط بقوة بالعادات الثقافية»[26]؛ ولهذا فالصورة هذه تذكرنا بوضع النساء والجواري في البلاطات أثناء عصور الضعف أو ما يسمى " الحريم " داخل القصور؛ وتترجم موقفا لدى الروائية أو الناشر موقفا ثائرا على وضعية المرأة. نجده حاضرا أيضا في صفحات الرواية، يتمثل في عدم الموافقة على عد

المرأة متاعا أو أداة للجنس و عدم اعطائها الحق في التعبير عن ذاتيتها و آرائها ، وتحويطها بكل ما يمكن أن يكبت صوتها و إرادتها .

حتى الألوان داخل هذه الصورة قد تترجم هذا الاتجاه لدى الروائية ،إذ نلقي هيمنة اللون الأحمر على ملابس المرأة داخل الصورة ،و بروز الأزرق واضحا في خلفية الصورة (Le fond). ومن مظاهر اللون الأحمر حسب النفسيين – دائما – أنه يتميز «بالنزواتية، و اتباع الجنس، و السيطرة والرغبة في المنافسة» [27] و لعل الرواية وإن كانت تدعي الكلام باسم رجل جزائري « والإقامة في عالمي الحميمي و مقاسمته عمرا من النضال و الخيبات الوطنية و التناقضات الذاتية»[28] إلا أنها لا تستطيع فكاكا من نظرتها التي تدين الرجل الذي ينظر إلى المرأة لونا أحمر يهيج فيه نزواته لا غير.يدعم هذه الفرضية أيضا ربما أن اللون الأزرق المهيمن على خلفية الصورة يحمل مظاهر محببة هي:«الحاجة للحب و الحنان والإخلاص والهدوء».[29]

خاتمة

تجلت في هذا العنوان بعض الوظائف . من أهمها :

– وظيفة العرض كما يسميها جينيت (Ginette) التي تعين على تعيين محتوى العمل الأدبي ..(تؤدي هذا الدور هنا كلمة ذاكرة) .

– وظيفة إغرائية إشهارية – إذا صح القول – حاصة من خلال كلمة جسد

– وظيفة أيديولوجية فالعنوان هنا ليس محايدا بل إنه من خلال الكلمتين المختارتين فيه يدين ويشاكس..

– يمكن أن نلحق بهذه الوظيفة الرؤية التي تتجلى عند الكاتبة في البعد الجنسي للكتابة، واللذة التي تتحقق عن طريقها (ما يشبه لذه النص عند بارت).

كما أن هذا العنوان يرتبط عن طريق بنيته ببنية النص ،فالجانب الزمني في مفهوم الذاكرة (قريبة متوسط بعيده) يتجلى في زمن الخطاب في الرواية. و يرتبط أيضا ببنية العالم المحيط عن طريق الآراء المخفية في بنيته العميقة .

الهوامش

(1) شادية شقروش، سيميائية العنوان في " مقام البوح" لعبد الله العشي محاضرات الملتقى الوطني الأول "السيميائية والنص الأدبي" 7-8 نوفمبر 2000، منشورات جامعة بسكرة ،ص 271

(2) محمد الهادي المطوي شعرية عنوان كتاب : الساق على الساق في ما هو الفارياق، مجلة عالم الفكر، مجلد 28 عدد 01 يوليو / سبتمبر 1999 المجلس الوطني للثقافة والعلوم، الكويت، ص 76 .

(3) اللاز للطاهر وطار ولونجة والغول لزهور ونيسي وريح الجنوب لابن هدوقة والتفكيك لبوجدرة بالاضافة إلى رواية أحلام مستغانمي.

(4) المعلم بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت طبعة جديدة، 1987، ص 108

(5) الأعلم الشنتمري، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ج1، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ط2 ، 1401 /1981 ،ص 195 .

(6) المعلم بطرس البستاني ،المصدر السابق ،ص : 108، 109 .

(7) Grand dictionnaire encyclopédique , larousse , tome 3 , librairie larousse , paris

(8) السعيد بوسقطة . لغة الجسد في رواية رمل الماية لواسيني الأعرج : السيميائية و النص الأدبي محاضرات ملتقى معهد الأدب – جامعة عنابة 17/15 ماي 1995 ،منشورات جامعة عنابة ،ص : 98 .

(9) انظر: أحلام مستغانمي، رواية ذاكرة الجسد، موفم للنشر، الجزائر، 1993، ص: 229

(10) انظر: حنون مبارك، دروس في السيميائيات، دار توبقال، الدارالبيضاء، ط1987،1، ص 56

(11) المعلم بطرس البستاني، المصدر السابق، ص 309 .

(12) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج1، مطابع الأوفن، ط 3، 1985 / 1405، ص 325

(13) انظر: الرواية، ص 136 .

(14) محمد الهادي المطوي، المقال السابق، ص 309 .

(15) الرواية، ص 34 .

(16) الرواية، ص: 13 .

(17) فريدة النقاش، قراءة نقدية لذاكرة الجسد، مجلة العربي، رجب 1417 / ديسمبر 1996 ، ص: 113 .

(18) Judith Lazor , La science de la communication (Que sais-je ?), é. Dahlab, Alger , 2 e E, P : 86

(19) الرواية ،ص 13 .

(20) انظر : محمد أحمد النابلسي، الاتصال الانساني و علم النفس، دار النهضة العربية، بيروت ،1991 ، ص 170 .

(21) الرواية ، ص : 14 .

(22) الرواية ، ص : 69 .

(23) الرواية ، ص : 11 .

(24) رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة ،الجزائر، 2000، ص: 11 . نقلا عن: ابن رشد تلخيص كتاب المقولات، حققه: محمود قاسم، الهيئة المصرية للكتاب ،مصر، 1980 ،ص : 144.

(25) حنون مبارك ،المرجع نفسه ص 310 .

(26) Judith lazor, La science de la communication , page : 87 .

(27) محمد أحمد النابلسي، المرجع نفسه، ص : 170 .

(28) المرجع السابق ن ص : 170 .

(29) المرجع السابق، ص : 170 .